**المحور الأول: مدخل إلى عام النفس الفسيولوجي**

**تمهيد**

تتناول هذه الوثيقة بالدراسة مختلف محاور مقياس علم النفس الفسيولوجي المقرر على طلبة السنة الثانية علم النفس الإكلينيكي حيث يركز على الربط بين الجانب النفسي والجانب الفسيولوجي الجسدي و إظهار العلاقة التكاملية بينهما. ويعتبر هذا المقياس من أهم مقاييس التكوين بالنسبة لطلبة لأنه يمثل قاعدة مشتركة لكل فروع علم النفس واختصاصاته. ولإثبات هذه العلاقة بالأدلة العلمية برمجنا مجموعة من المحاور نختزل فيها العديد من المعارف و الحقائق الفسيولوجية و كيفية تأثيرها على الجانب النفسي و السلوكي للإنسان و كذا تأثير الحالة النفسية بمختلف اشكالها و ابعادها على تغيير النظام الفسيولوجي سواء بالإيجاب او بالسلب. و لتسهيل الدراسة و الفهم على الطلبة، حددت الأستاذة المعادلة التالية لتنطلق منها في هذا المقياس و تكون محورا و هدفا في نفس الوقت و هي: **الحياة النفسية =Ʃ التفاعلات الكيميائية و الكهربائية** و تعني هذه المعادلة ان الحالة النفسية هي عبارة عن نشاط كهروكيميائية حيث يكون هذا النشاط الفسيولوجي إما سببا للحالة النفسية او نتيجة لها.

**1-تعريف علم النفس**

ينبغي أن نشير هنا إلى أننا لسنا بصدد التفصيل في ميدان علم النفس العام، إنما نذكر بالتعريف الإجرائي كانطلاقة للدخول في موضوعنا. يعرف كل الطلبة أن علم النفس هو العلم الذي يدرس الحياة السلوكية للإنسان، في تفاعله مع المكونات المختلفة للشخصية و العوامل المؤثرة فيها، الداخلية و الخارجية، الشعورية واللاشعورية، في كل مراحل العمر الزمني المتسلسلة و المتداخلة. إذا أردنا أن نفصل في مكونات الشخصية سنجد أن المكون الجسمي(البيولوجي و الفسيولوجي )هو القاعدة الأولى التي تبنى عليها شخصية الإنسان وان العوامل الداخلية المؤثرة فيها تتمثل أساسا في الجانب الجسدي أي الفسيولوجي. إذا، مبدئيا العلاقة ظاهرة و عملت كل الفلسفات القديمة على توضيحها و قامت الدراسات و البحوث الحديثة على إثباتها. و لان التأثير و التأثر بين هذين الجانبين عميق جدا و في غاية الأهمية، وجد علم النفس الفسيولوجي كفرع قائم بذاته يختص في البحث و الدراسة عن أسرار التفاعلات الكيميائية و الكهربائية التي تحدث في الجسم وانعكاساتها على الحياة النفسية و كذلك انعكاسات الحالة النفسية على التغيرات التي تصيب النظام الفسيولوجي العام.

**2-تعريف الفسيولوجيا physiologie**

بشكل عام تعرف الفسيولوجيا بأنها العلم الذي يتناول بالدراسة وظائف كل أعضاء الجسم و تكاملها فيما بنها و تأثرها يبعضها البعض و تأثرها بالعوامل الخارجية. يختلف تعريف الفسيولوجيا باختلاف مجالات استخدامها و اهتمامات كل مختص، من البيولوجي إلى عالم الكيمياء و عالم الفيزياء و كذا الفلاسفة، حيث ينظر إليها كل واحد من هؤلاء و يعطيها مفهوما يتناسب مع ميدانه. أما الفيسيولوجيين أنفسهم، فيذهبون إلى اعتبارها عملية إنتاج الطاقة بكل أنواعها: الحرارية، الميكانيكية لكهربائية و الضوئية، بالإضافة إلى الطاقة المتراكمة في قلب المادة الحية. و عليه، فان الكائن الحي هو منتج و مخزن و محول للطاقة متخذا من الغذاء و الماء و الشمس و الأكسجين مصادر خارجية ضرورية لتكوين و تحرير الطاقة الداخلية.

**3-تعريف علم النفس الفسيولوجي psychophysiologie**

تحصي الرابط النفسية الأمريكية ما يزيد عن 50تخصص و فرع من فروع علم النفس، و تؤكد على انه حلقة الربط بين مجموعة العلوم الاجتماعية( علم الاجتماع، علم الاقتصاد، علم التاريخ....) و مجموعة العلوم البيولوجية( علم الوراثة، علم التشريح، علم وظائف الأعضاء، علم الكيمياء الحيوية، علم الأدوية....).

و يعتبر علم النفس الفسيولوجي احد الفروع التطبيقية في علم النفس، يدرس العلاقة بين النفس و الجسم أي بين العمليات العقلية و الانفعالية الوجدانية و التكوين العضوي الوظيفي الداخلي و الخارجي. فهو يقدم دراسة تشريحية ،عضوية، وظيفية عن المواضيع التالية:

- الجهاز العصبي بمختلف مراكزه و فروعه و قسميه الإرادي و للاإرادي و تأثيره على سلوك الإنسان. ويعتبر الجهاز العصبي المحور الأساسي لهذا المقياس باعتبار انه مركز السلوك.

- الحواس و عملياتها كونها أجهزة استقبال للمثيرات الخارجية التي تساعد الجهاز العصبي على الإحساس بالبيئة الخارجية و إدراكها و تسهل عليه التكيف معها بتحديد الاستجابات المناسبة.

- الجهاز الغدٌي و دور في التوازن الكيميائي و بالتالي الوظيفي على مستو كل أعضاء الجسم و انعكاسه على السلوك، علما بان الغدد تمثل الجهاز التنفيذي للجهاز العصبي حيث تنقل الاستجابات في شكل إشارات كيميائية إلى الأعضاء المستهدفة.

- الهيكل العضلي و الحركي و أثره على الاستجابات السلوكية.

- العمليات العقلية و الانفعالية في كل الحالات و الوضعيات المختلفة للإنسان: في اليقظة و النوم، أثناء التعلم(تخزين المعلومات و استرجاعها)،في حالة القلق أو الفرح....الخ و كل ما يتصل بها تأثرات و تأثيرات على مختلف وظائف الجسم و ذلك في إطار دراسة تأثير الحالة النفسية على النظام الفسيولوجي العام.

- التغذية و علاقتها بالسلوك باعتبارها احد المحركات الهامة للنظام الفسيولوجي و مصدرا أساسيا من مصادر الطاقة من جهة، و العناصر الكيميائية التي تساهم مع الغدد في التوازن الكيميائي من جهة أخرى.

- فحص اثر العقاقير(الأدوية) و المخدرات على السلوك، حيث يعتبر علم العقاقير النفسية احد مجالات البحث التي تندرج ضمن علم النفس الفسيولوجي بالإضافة إلى العلوم العصبية التي تدرس العلاقة بين وظائف الدماغ و السلوك.

**4-تطور علم النفس الفسيولوجي**

في لمحة وجيزة، نريد استعراض أهم المحطات التي مر بها علم النفس الفسيولوجي في أثناء تطوره و كذا أهم الإسهامات العلمية التي ساعدت على هذا التطور، عبر المراحل التاريخية الكبرى التي شهدها علم النفس عموما، و هي كما يلي:

**-المرحلة اليونانية القديمة**: من ابرز علمائها:

- أفلاطون: تلميذ سقراط، يحمل كل أفكاره و يضيف لها وجود عالمين متمايزين هما عالم المثل و فيه المعاني و الأفكار و منه تتكون النفس ،و عالم الحس و هو العالم المادي و منه يتكون الجسم. يشبه أفلاطون الإنسان المتكون من النفس و الجسم بعربة يجرها حصانان و يقودها سائق. الحصانان هما النفس الغضبية و النفس الشهوانية و السائق هي النفس العاقلة. كما يرى أن النفس تنشا في عالم المثل ثم تهبط إلى عالم المادة في الجسم، و أن الصلة بين النفس و الجسم كصلة السفينة مع ربانها. من هنا بدا البحث في علم النفس الفسيولوجي.

- أرسطو: يعتقد أن النفس و الجسم لا ينفصلان لأنهما جوهر واحد. يفرق أرسطو بين أنواع الكائنات حسب وظائفها الرئيسية، فتحدث عن وظائف التغذية لحفظ الحياة و النوع و هي مشتركة، وظائف الحركة و الحس استجابة للمثيرات و تفاعلها معها، ثم وظائف التفكير التي يتميز بها الإنسان. و هنا أيضا نلاحظ أن أرسطو اهتم بالإنسان في بعديه النفسي و الفسيولوجي.

**- مرحلة الفكر الإسلامي العربي**: استفاد الفكر العربي الإسلامي، من تراث الفكر العلمي اليوناني نقلا و ترجمة و شرحا، وقدم في مجال الدراسات النفسية، اتجاها علميا تطبيقيا عن التطور الفسيولوجي للحياة الجنينية انطلاقا من النطفة إلى العلقة ثم المضغة وصولا إلى النشا المختلف. كما بحث في مراحل النمو و أنماط الدوافع و السلوك و الانفعالات و آثارها النفسية و الجسمية. من أهم رواد الفكر العربي الإسلامي الذين ساهموا في تطور علم النفس الفسيولوجي نذكر:

- **ابن** **سيناء**: الذي درس الإدراك الحسي و أعضاءه و مراحله في انتقال صورة الشيء الخارجي إلى الذهن عن طريق الحواس. كما بحث في الانفعالات الإنسانية التي لا توجد عند الحيوانات كالضحك و الخجل و التعجب. و حاول فهم العلاقة بين بعض الأمراض الجسمية و النواحي النفسية. اعتمد ابن سينا على التراث الفلسفي اليوناني والهندي والفارسي والعربي-الإسلامي، اعتماده على معطيات الطب والتشريح. وقد ساعده توظيف هذه المعطيات وذاك التراث توظيفاً مبدعاً، إلى جانب خبرته وتجاربه وملاحظته العلمية الدقيقة، في صياغة نظريته السيكولوجية على نحو متناسق ومنتظم جعلها تفوق جميع ما سبقها من نظريات دقّةً وشموليةً. وتتجسد نظرة ابن سينا المبدئية إلى العلاقة بين النفس والجسد بصورة واضحة عبر دراسته للجانب الوجداني من النفس البشرية. فقد حاول التعرف على السبب النفسي للضعف العضوي ، بالاعتماد على تغيّر نبضات القلب وتبدلها كرد فعل تقوم به العضوية على مثيرات العالم الخارجي. وتعدّ هذه التجربة أول محاولة للتشخيص النفسي في تاريخ الفكر الإنساني. حيث سبق ابن سينا بها محاولات علماء النفس في العصر الحديث لوضع اختبارات تمكنهم من الكشف عن الجوانب الانفعالية والوجدانية لدى الإنسان. بحث بن سينا في مركبات الجهاز العصبي باعتباره مصدر الإحساس والإدراك عند الإنسان والحيوان. وقد مكّنه ذلك من تطوير الأفكار المتعلقة بوظيفة الدماغ وعمل الأعصاب، والتصورات التي كانت سائدة آنذاك حول النشاط الحسي وتصنيف الحواس حسب أهميتها وفائدتها في المعرفة الحسية على وجه الخصوص. واقترب بها في بعض المواضع من المعطيات العلمية الحديثة. فمتابعته لموضوع الحواس من خلال مؤلّفاته "مبحث عن القوى النفسانية" و كتابه "الشفاء".

**- الفارابي**: ترجم الكثير من التراث العلمي اليوناني إلى العربية، حيث كان يتقن 10 لغات، له آراء متعددة في الحياة النفسية الاجتماعية و درس نفسية الإنسان و فطرته الاجتماعية و شبه الروابط الاجتماعية بين أفراد مدينته الفاضلة بأعضاء الجسم التي يؤثر بعضها على بعض و يؤثر على بعضها.

**- الإمام أبو حامد الغزالي**: هو أول من أطلق تسمية "علم النفس" على المعلومات المتعلقة بالنفس البشرية وسماها أيضا "علم المعاملة". درس الدوافع الإنسانية بشتى أنواعها و سماها جنود القلب و قوى النفس، وصنفها إلى جنود محركة كالغضب و جنود مدركة كالذاكرة و التفكير و الخيال. صنف السلوكات إلى سلوك طبيعي واضطراري كالتنفس و اختياري كالمشي و الكتابة و النطق. ترك دراسة تفصيلية عن مقومات العادات و الأخلاق و إمكانية تعديلها و قارن بين الشخصية الاندماجية و المنطوية. كما تحدث عن التعلم الشرطي الذي ينسب حاليا إلى بافلوف العالم الفسيولوجي الروسي.

**- ابن حزم الأندلسي:** اعتبره التاريخ جامعة متنقلة في الشريعة و الفلسفة و الآداب و الطب و الأديان المقارنة. من أهم المواضيع التي تطرق إليها بالدراسة في المجال النفسي الوجداني، موضوع الحب و ماهيته و حدد علاماته النفسية كالانطواء و الميل إلى الوحدة والكتمان و الانقياد، و علاماته الجسمية كنقص الشهية و نحول الجسم.

**- الإمام بن الجوزي:** ألف كتاب "الأذكياء" و كتاب "الحماقة" لدراسة ظاهرتين نفسيتين لاتزال كل واحدة منهما مجالا واسعا للدراسات و البحوث النفسية حيث ذكر العلامات التي يستدل بها على الذكاء و بين أسباب التخلف الذهني و أعراضه و درجاته.